المشرق

التذكار المئوي لمولد پاستور

لادارة المشرق

مقدمة

ليست هذه المرّة الاولى تخصّ فيها مجلّة المشرق صفحاتها لذكرى ذاك النابغة الذي شرّف وطنهُ واحسن الى الانسانيّة كلّها بمخترعاته العجيبة واكتشافاته الذهلة . فقد سبقت المجلّة وأفردت لتعريف شخصه الكريم مقالةً واسعة في احد اعداد سنتها الرابعة عشرة (١٩١١ : ٥١—٥٧) . بيد انّها ترى بنسبة السنة المئة لمولده فرصةً جديدة لاطراء اعماله ووصف مآثره فتشارك بالمديح والشكر عالم العلم والمدنيّة الصادقة ولاسيما مكتبنا الطبيّ الذي عقد لذكره حفلةً شائقة تصدّر فيها نيافة القاصد الرسولي ونائب المفوّض الاعظم السير روبرت دوكاي ببياناً للاخاء بين العلم والدين في شخص پاستور وحضرها وجوه البلد واعيانهُ مع شرفاء الانتداب العسكريين . وسنقتطف من تلك المحاضرات التي ألقاها اساتذة المكتب لبابها الذي يجدرُ بقرّائنا ان يطبعوهُ في ذهنهم قياماً بمعرفة الجميل نحو ذاك العالم الكبير وشكرًا للعزّة الالهيّة التي تؤيّد بعض نوابغ الرجال بروح منها رحمةً ببني البشر وتلطيفاً لأوجاعهم

١ الرجل

ولد لويس پاستور في مدينة دول (Dôle) من مقاطعة جورا (Jura) في ولاية

فرنش كُنتَه احدى ولايات فرنسة التي كان ملوك اسبانية يملكونها سابقاً فكأنهُ جمع في شخصهِ محاسن تينك الأمتين الجليلتين . فكان مولدهُ في السنة ١٨٢٢ اذ كان وطنهُ اصاب الراحة والسلام بعد الثورة الكبرى وحروب نابوليون بعودة ملوك بوربون الى حكمهم القديم على فرنسة . وكان ابوهُ خدم وطنهُ في الجندية فرقي الى درجة ملازم ونال وسام جوقة الشرف لما اظهرهُ من البسالة في الحرب لكنهُ لم يأنف من ان يرجع الى حرفتهِ التي كان يرتزق منها قبل الحرب وهي الدباغة . على انَّ الله كان جمَّلهُ بصفاتٍ فريدة من سموّ الفكر وثبات العزم والاستقامة في المعاملات فضلاً عن روح الدين ما احبَّ ان يورثهُ لابنهِ فأحسن تربيتهِ وأثار في قلبهِ الرغبة بالامور الشريفة والترقي فنشأ الولد منذ نعومة اظفارهِ شبيهاً بوالدهِ يتوق الى خدمة اهلهِ ووطنهِ متشبثاً باهداب الدين

واذ أنس منهُ ابوهُ النجابة وتوقد الفهم في دروسهِ الاولى في بلدتهِ ارسلهُ الى باريس الى احد مواطنيهِ رئيس مدرسة سان لويس ليكمل هناك دروسه لكنهُ وجد نفسهُ في عاصمة فرنسة كالغريب واظلمت الدنيا في عينيهِ فنكد عيشهُ وطلب الرجوع الى وطنهِ . فما كان ذلك الا سحابة صيف ما لبثت ان انقشعت فثبَّت عزمهُ وشدَّد شكيمتهُ وعاد الى باريس ووطَّن نفسهُ على العزلة والمثابرة على الدرس والحياد عن ملاهي الشبَّان صيانةً لطهارة قلبهِ وصفاء ذهنهِ . فكانت ثمرة عزيمتهِ انهُ احرز بوقت قريب العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة التي تؤهلهُ للمناصب الاولى في التعليم بل اتخذهُ رئيس المدرسة وهو بعدُ من جملة الدارسين ليلقّن تعاليم الاساتذة رفاقهُ الذين كانوا دونهُ فهماً فوجدوهُ نعم الاستاذ

ولمَّا قدَّم الامتحانات المعهودة لنوال شهادات الباكلورية ثمَّ الليسانسيَّة ثمَّ الليفنة كان رأي الجمهور العام انَّ هذا الشابَّ زينة وطنهِ وقدوة رصفائهِ . وكان مع شظف عيشهِ وقلَّة ذات يدهِ يوفر مالهُ لمساعدة المشروعات الوطنيَّة والخيريَّة . فعلم ابوهُ ببروتهِ واريحيَّتهِ فنشأ نفسهُ بمثلهِ ولداً كريم السجايا شهماً عالي الهمَّة

ولا عجب بعد ذلك ان ارباب الامر عهدوا اليهِ في السنة ١٨٤٨ وعمرهُ ٢٦ سنة تعليم الكيميا في كليَّة ستراسبورغ حيث حلَّ ضيفاً كريماً على رئيسها السيور لوران فكان في بيتهِ كأحد اعضاء عيلتهِ . واذ خطب اليهِ ابنتهُ مصرّحاً بأنهُ لا ثروة لهُ

سوى ما يكسبهُ بالتعليم لم يتردّد الرئيس في ان يجود عليهِ بكريمتهِ لما عرفهُ من فضلهِ وفضيلتهِ . والحقّ يقال انهُ قلما رُجد زوجان تهيّأ مثلهما بمرافق الزواج فكان اقترانهما بالنفس والعواطف امتن منهُ بالجسد وحطام الدنيا وباركهما الله بأن منحهما ذرّيّة صالحة كانت فرحهما وتعزيتهما لولا انّهُ تعالى استأثر بحياة البعض منها ومع اسفهما عليهم لم يستسلما الى القنوط بل قبلا تلك المحن من يدهِ تعالى بالتسليم لمشيئتهِ الصمدانيّة . وتكرّرت هذه المحنة على المسيو باستور بوفاة والدهِ الذي كان يكرمهُ اي اكرام ويعزّهُ كأبرّ البنين وحظي برضاه طول حياتهِ فأسرع اذ علم بمرضهِ في السفر لينال بركتهُ الاخيرة فوجدهُ جثّة هامدة بألمها بدموعه . ولدينا الكتاب الدالّ على عواطفهِ البنويّة الذي وجّههُ الى امرأتهِ واولادهِ في تلك الاثناء.

ومحبّة باستور هذه لم يحصرها في ذويه بل بسطها بعد قليل نحو كلّ الذين اختلط بهم من اساتذة وعلماء وتلامذة ومرؤوسين يرى في الاحسان الى الجميع سروراً وارتياحاً . وكان يتفانى في خدمة الكلّ ويظهر في سائر معاملاتهِ انيساً لطيفاً صبوراً ذا بساطة واخلاق رضيّة تحبّبه لكل من يقترب اليهِ فيضحّي في سبيلهم وقتهُ الثمين . وكان لطفهُ هذا يشمل حتى الاطفال الصغار والاحداث يرى فيهم كما كان يقول رجال الغد فيعالجهم بحنان خاصّ

وكان باستور في ما خلا خدمة الجمهور ضنيناً بوقته يأبى كلّ ما كان يشغلهُ عن ابحاثهِ فلا يحضر الاجتماعات العاليّة والحفلات المفكهة والمسارح ومسامرات السمر

ومما امتاز بهِ العلّامة باستور نزاعتهُ وعفّتهُ فانهُ كان يمكنهُ ان يربح من اشغالهِ مالاً وافراً فأبى ان يُتاجر بمعارفهِ مفضّلاً على منافعهِ الشخصيّة خير وطنهِ واعلاء منار العلوم . وكان اذا وجد في زملائهِ طمعاً في المال يبكتهم ويزجرهم لبخسهم كرامة العلم

٢ الفرنسي والوطني

قد تجسّمت في باستور روح الفرنسويين الطيّبة اعني بها الاقدام والنشاط والنخوة فلا تعيقهُ الصعوبات ولا تثبط عزيمتهُ المشاكل فاذا باشر عملاً لا ينقطع عنهُ حتى يستوفيهُ ويحقق منهُ آمالهُ

وكان كأحرار الفرنسويين يحنّ لكل ذوي البأساء من أمته ومن الاجانب .

بلغهُ سنة ١٨٤٣ ما حلّ ببولونية من البلايا تحت نير روسيَّة الثقيل فجعل يجمع المال لاسعاف أهلها ولم يباشر كثيراً من ابحاثهِ العلميَّة الَّا لتلطيف بلايا العَمَلة والصنَّاع والمزارعين والمبتلين بالاوبئة حتى انَّ احد وصفائهِ قال عنهُ : انَّ رقة قلبهِ كانت بمثابة سعة عقلهِ وسموّ ادراكهِ

وكان مع ذلك قد بلغ حبُّهُ لوطنهِ مبلغاً عظيماً فكان اذا وقف على بعض اسرار الطبيعة لا يفرح الَّا لما سينال فرنسة من المجد بسببهِ

وكان اذا حلّ بوطنهِ رزء يتأثر منهُ ايَّ تأثير كما حدث في حرب المانية وفرنسة سنة ١٨٧٠ فانهُ امتعض لما رآهُ عياناً من هجيَّة الجيوش الالمانيَّة فكُسف بالهُ وعيل صبرهُ وردّ لكليَّة بون الالمانيَّة وسام الشرف الذي كانت اهدتهُ اياه ولم يشأ مذ ذاك الحين مكاتبة الالمان . واذ فاتحهُ الامبراطور غليوم الثاني سنة ١٩١٤ بواسطة سفيرهِ ليمنحهُ بعض امتيازات دولتهِ رفضها بتاتاً

ولمَّا دُعي الى المؤتمرات العلميَّة في لندن وفي جنيفة وفي كوبنهاغ ليمثل فيها دولتهُ كانت ترنُّ معاهد الاجتماعات بتكرار اسمهِ والثناء العظيم على خدمهِ العديدة للعلوم فكان لا يكاد يعبأ بذلك وانَّما يُسَرُّ بهِ لما تصيبهُ فرنسة من الشرف وكان اذا رجع الى باريس لا يذكر شيئاً مما جرى سوى قوله : « قد نالت فرنسة ما تستحقُّهُ من المجد الاثيل فوق سواها » . وكان لا يرفع صوتهُ في جدال غيرهِ من العلماء الَّا اذا مُسَّ حقّ وطنهِ وخاف تغلُّب الباطل على اليقين

٣ العالم النابغ

لو اردنا الاتساع في هذا الباب لضاقت عن استيفائهِ اعدادٌ من المجلَّة وانَّما نكتفي بذكر ما ادَّاهُ من اخدم لبعض العلوم فخطَّاها خطَوات بالغة لم تحصل على مثلها قبلهُ

﴿ باستور وجوامد الكيميا ﴾ سبق انَّ باستور عُهد اليهِ اوَّلاً تعليم الكيميا فكان باكورة اكتشافاته انَّهُ بيَّن ما يوجد من العلاقة بين اختلاف استقطاب النور في التبلُّورات واستدارة ذاك النور المستقطب في الملح الطرطيري فوضع اساس علمٍ جديد يدعى علم جوامد الكيميا (Stéréochimie) فاستنتج ان الاختمارات الجارية في الاجساد انما هي نتيجة ظواهر غذائيَّة علَّتها بعض الجراثيم الدقيقة التي تتسلَّط على

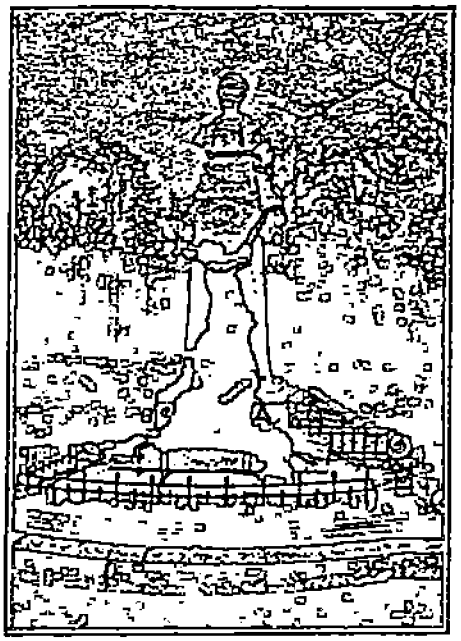

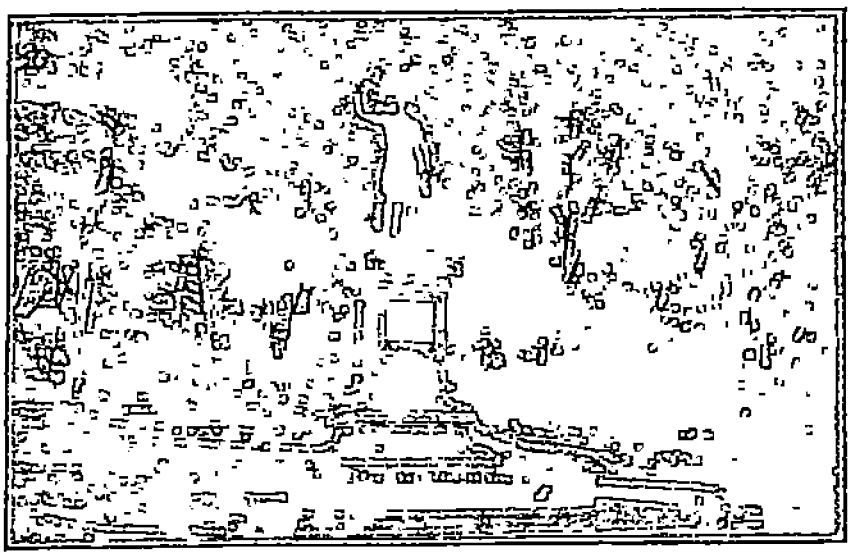

١ تمثال پاستور للنحّات شاليو في المَرْن

ترى عند اقدامه شابًا عضّهُ كلب كلب رافعاً يمينهُ الى طبيبه

٢ تمثال پاستور للنحّات طوني نويل

صوّرهُ وفي يده غصن من الأريقيّ ملتصقة به فيالج دود القزّ

المواد الكيموية وتؤثر في تركيب دقائقها وبذلك انشأ علماً آخر يُدعى الكيميا الحيوية (Biochimie) اتصل الى ثبات نواميسه بالمراقبة المجهرية

﴿ باستور وعلم الاختمارات ﴾ أدّت اكتشافات باستور الآنف ذكرها الى اكتشاف علم آخر اعظم شأناً وهو فعل تلك الجراثيم في مركّبات الكحول والسكّر واختمارات المشروبات الكحولية كالخمر والجعة واسبابها . فبيّن انّ تلك الاختمارات الكحولية ليست مفعول التركيب الكيميّ المحض والتولّد الذاتي بل هي مفعول جراثيم وحيوانات تتوالد وتتناسل في الجوّ فتفعل بتلك المشروبات سواء كانت سكّرية او كانت حوامض فتخمّرها ولولاها يستحيل التخمير ومن ثمّ لا صحّة لقول الزاعمين بتولّد الحياة الذاتي بل كلّ حيّ من حيّ آخر . واتى لاثبات ذلك بأدلّة قاطعة فانّهُ بتعقيم تلك المواد منع عنها كلّ جراثيم الهواء فأبقاها اشهراً بل سنين دون فساد ولا اختمار . وبذلك قطع لسان كل خطيب ودكّ دعائم الدوريّة والماديين واشباههم مع وضعه النواميس الثابتة لحسن استحضار الخمور والجعة بالطريقة المنسوبة اليه (pasteurisation) بتسخينها الى الدرجة ٥٥ من المقياس المئوي

﴿ باستور وعلم الميكروبات ﴾ هو عالم جديد اوحى بوجوده باستور فان اكتشافهُ للجراثيم الحيّة في الهواء والمختمرات مهّد لهُ السبيل الى توسيع ابحاثه فأنشأ علم الميكروبات او النقاعيّات (Bactériologie) والجراثيم الدقيقة التي لا يُوقف عليها الّا باكبر النظّارات والمُجهرات وهي المعلّة لكثير من الادواء والاوبئة كما اثبت ذلك في علل دود القزّ التي كانت أصيبت بالداء البهاري (pébrine) وداء الذبّالان (Flacherie) ففشا الداءان بسرعة عجيبة في كلّ انحاء اوربّة وسوريّة والصين وفقد المربّون لها ملايين من الدراهم بسببها وكادت تتلف صناعة الحرير لولا باستور الذي تمكّن من معرفة تينك العلّتين والطريقة الكافلة بعلاجهما

﴿ باستور وعلم الطبّ ﴾ كان الطبّ الى عهد باستور محدّداً منحصراً في امتحانات الاقدمين وعلاجاتهم المبنيّة على التجربة فوسّع باستور نطاقهُ وجعلهُ علماً راسخاً مستنداً الى اصول نظريّة تؤدي بالطبيب الى حسن تشخيص الداء وتعيين ما يلزمهُ من الدواء

وكان الاطباء قبلهُ عاجزين عن معالجة عدّة علل واوبئة كداء الجمرة والهواء

الاصفر والطاعون والحُمّى التيفونيدية فأثبت لهم الطريقة لشفائها بالتطعيم بان يُستخرَج مصل الحيوان المصاب بهذه الادواء بعد تلطيفه ويطعَّم به الحيوان السالم الجسم ومثلهُ الانسان فيكتسبان قوّة الوقاية المانعة عنها تلك الاوبئة وهو الشفاء من الميكروبات بواسطة الميكروبات نفسها وذلك علم البكتريوثراپيا (Bactériothérapie) (rapie . وبوقوفهِ على الجراثيم الموبئة وتهيئتهِ للتطعيم الشافي لسمومها أدى باستور خدماً جليلة لعلم آخر وهو علم الأمراض وعلاجها (Pathologie) وانشأ علم العلاج بالمصول (Sérothérapie) الذي واصلهُ تلميذهُ الدكتور رُو (Dr Roux) فنال باستحضار المصول شهرة واسعة

﴿باستور وعلم الجراحة﴾ انَّ الجرّاح كان قديماً اذا عمل عمليَّة من قطع او بَتْر وما شاكلها لا يلبث في الغالب جريحهُ ان يودّع الحياة لآكلة تصيب الجريح بسبب جراثيم الهواء والآلات الجراحيَّة وايدي العاملين . فاوقفهم باستور على طريقة التعقيم اما بقتل تلك الجراثيم (antispésie) واما بمنع دخولها (asépsie) فتمكّن ارباب الجراحة في عهدنا من اجراء عمليّات عجيبة ما كانت لتخطر على بال احد سابقاً وذلك دون خطر وبنجاح تامّ

﴿باستور وعلاج الكَلَب﴾ كان باستور في العلل والاوبئة السابقة اكتشف جراثيمها المعدية فامكنهُ مناهضتها وإلغاء شرورها . اما الكَلَب فلم يمكنهُ الوقوف على جرثومته القتّالة وانما كان يعرف سمَّهُ فقط فجرى على طرائقهِ العلاجيَّة السابقة بتلطيف قوَّة ذلك السمّ والتطعيم بهِ ملطَّفاً فيبرأ الكَلِب من دائهِ . كما ترى ذلك يومياً في مكتب الطبّ الفرنساوي حيث يتوارد المعقورون من الكلاب فيشفون اللهمَّ اذا اسرعوا الى التداوي قبل تفاقم الداء

تلك حفنة من كثيب من اكتشافات ذلك العلّامة فريد عصرهِ الذي انقذ من الموت اكثر مما اتلفتهُ الحرب الاخيرة من الجيوش فيستحقّ دون غيرهِ ان يُدعى اكبر محسن الى البشريَّة جمعاء بل شرفها وفخرها وتاجها وان تُقام لذكرهِ التماثيل في سائر انحاء المعمور

٤ المشرب والمسعى

قلنا انَّ باستور كان احقَّ واصدق شاهد على انَّ العلم والدين اخوان . وها نحن

نذكر الادلة الساطعة على تدين باستور وقيامه بواجبات دينه

اشرق الله شعاعاً من نوره الالهي على عقل باستور فلم يسعهُ ذلك النور فقط في اكتشافاته العديدة لاسرار الطبيعة الغامضة بل انارهُ ايضاً في معرفته الحقائق الازلية

بنى باستور اكتشافاته المختلفة على الامتحان متحايداً عن كل ما يُحتمل على التخريص والتخمين مع قطعه النظر عن آراء الفلاسفة ومذاهب المتجادلين الّا انهُ عرف انَّ للعلم الوضعي حدوداً لا يستطيع ان يتخطّاها . فمن قوله «انَّ في الانسان وجهين متباينين اعني بهما : الرجل العالم الذي يحكم في العناصر الكونية كما تلوح لهُ في جواهرها وظواهرها ضارباً الصفح عن الظنيات . والرجل الفطري الذي يتوق الى ما يسندهُ في الاوجاع ومشاكل الحياة وللدين المقام الاوّل في ذلك لا يجوز للعالم ان ينتهك حماه »

ومن ثمَّ كان باستور ثابت الاعتقاد في وجود الخالق وخلود النفس وما ينتظرها في الآخرة من ثواب او عذاب لاجل اعمالها لاسيّما بعد ان نقض بالدليل العلمي رأي الماديين بتولّد الحياة الذاتي

ولمّا اختارتهُ جمعيّة العلوم الكبرى في باريس خلفاً لليتره (Littré) الذي كان عاش كافراً ولم يهتدِ الى الايمان الّا عند ساعة موته لم يأنف باستور في خطبته لدى المجمع يوم انضمامه اليه بان يندّد بمعتقد ليتره وكفره كما اقرَّ بذلك صاحب المقتطف في عدده التاسع من السنة ١٩١١ (ص ٨٠٥)

ولم يكتفِ باستور باعتقاد الحقائق الدينيّة الفلسفيّة بل طأطأ رأسهُ امام اسرار الكنيسة والوحي الالهي واخذ على نفسه القيام بواجبات دينه كما انَّهُ هذَّب اولادهُ بمقتضاها

ومن درر كلامه في تلك الحفلة التي كان يحضرها رنان الملحد قولهُ :

«طوبى لمن يحمل الله في باطنه ويخضع لهُ فهو عزَّ وجلَّ مثال كل الجمال مثال العلم مثال الوطنيّة مثال الفضائل الانجيليّة فتلك هي الينابيع الحيّة للافكار السامية والاعمال الشريفة . وكلُّها تسطع بأنوار الالوهيّة »

وكان كل صباح اذا سار الى مختبره الكيموي يحيد عن طريقه ليذهب الى كنيسة القديس اسطفانوس (St Etienne-du-Mont) فيخرّ ساجداً لله قريباً من قبر القديسة جنوفيفا شفيعة باريس فكانت عواطفهُ الدينيّة تسندهُ في اشغاله الشاقّة وتجدّد

لهُ الطريق الى اعظم الاكتشافات والى ذروة المجد حتى اصاب من الامتيازات الشرفيَّة ارفعها لاسيَّما لمَّا بلغ السنة السبعين من عمرهِ فأقيمت لهُ حفلات شائقة اشترك فيها علماء العصور فكان العالَم باجمعهِ صوتاً واحداً للثناء عليهِ وإطراء فضلهِ

لكنَّ عبءَ السنين كان يزدادُ ثقلاً على اعناقهِ فشعر بقرب أجلهِ وكان اوَّل ما فكَّر بهِ ان يدعو مرشد ضميرهِ الاب بولانجان الراهب البندكتي . وبعد ان تزوَّد اسرار الدين وبارك عيلتهُ واستودع اصحابهُ المخلصين بفراشهِ اسلم روحهُ لخالقهِ ويدهُ اليسرى في يد امرأتهِ وفي يمناهُ صليب المسيح الذي كان يكرِّر تقبيلهُ . فكانت وفاتهُ هذه الصالحة في عصر اليوم ٢٨ من ايلول سنة ١٨٩٥ وكان لنعاهُ رنَّة اسف سُمع صداها في انحاء فرنسة بل في اقاصي العصور واحتفلت باريس بجنازتهِ احتفالها باعظم رجالها . وبعد الصلاة عليهِ دُفن في معبدٍ صغير كما كان اوصى بهِ في وصيته الاخيرة فصار قبرهُ منذ ذاك الحين مزاراً تتناثر فوقهُ مع صلاة الزوَّار على راحة نفسهِ آيات الشكر والثناء على مآثرهِ المخلَّدة . فبكل صواب اقبل العالم على تكرار عرفان الجميل اليهِ بنسبة تذكار مولدهِ الشريف اجزل الله ثوابهُ في دار البقاء

ترجام القيامة المقدَّسة

لاجاثليق ايليا الثالث المعروف بابي الخير بن الحديثي

عُني بنشرهِ الاب لويس شيخو اليسوعي

تمهيد

بين المخطوطات القديمة التي دخلت مكتبتنا الشرقيَّة منذ عهد قريب سفرٌ جليل كتب في مصر سنة ٧٠٤٣ لآدم الموافقة لسنة الميلاد ١٥٣٥ فيهِ مجموع تراجم اي خطب للاعياد السيديَّة في عدد ٣٢ خطبة نُشر ١٦ منها في الموصل في كتاب التراجم السنيَّة للاعياد المارانيَّة لايليا الثالث ابن الحديثي احد بطاركة الكلدان الساطرة المتوفَّى في القرن الثاني عشر سنة ١١٩٠